صناعة المعجم بين الأصالة والمعاصرة

أ. جميات مريم

جامعة سعد دحلب

البليدة

الملخص:

يعالج هذا البحث المراحل التي مرت بها صناعة المعاجم بدءا بمرحلة الجمع العام ثم مرحلة الرسائل و الكتب المتخصصة، وأخيرا مرحلة المعاجم العامة المتكاملة، وقد تمت الأشارة إلى ميزات كل مرحلة وإلى الجهود الفردية والجماعية التي اسهمت في تطويرها، وفي ثنايا ذلك تم ذكر العلماء الذين بذلوا جهودا معتبرة للنهوض بالمعجم العربي.

الكلمات المفتاحية: معجم – مراحل – جهود – الترابط.

Résumé

Ce thème aborde les stages par lesquels est passée la production des lexiques. Le premier stage est celui de l'assemblement général, ensuite celui des lettres et des livres spécialisés, et dernièrement le stage des lexiques généraux interconnectés. J'ai cité les caractéristiques de chaque stage ainsi que les efforts individuels et collectifs qui avaient contribué au développement de ces lexiques, je n'ai pas oublié de mentionner les savants qui s'étaient considérablement donnés pour faire réussir le lexique arabe.

Mots-clés : lexique – stages – efforts – interconnexion

في بادئ الأمر لم يكن العمل المعجمي ذا منهج دقيق ومنظَّم فنجد اللغويين الأوائل جمعوا اللغة العربية مع شرحها وإزالة اللبس منها بطريقة اعتباطية، بحيث يسمعون كلمة في الزرع وكلمة في المطر ويحصِروها في كتبِهم دون ضبطٍ وترتيبٍ.

تسمّى بالصناعة المعجمية أو "علم المعاجم"، وأيضا "علم المفردات"، وفي الفرنسية مصطلح " lexicology " ، وفسّره الخولي: بقوله:<< دراسة مفردات اللغة من حيث الجوانب الصوتية والصرفية والدلالية والتاريخية والاشتقاقية>>[1]

ومنه فقد مرت الصناعة المعجمية عند العرب بمراحل ثلاث حسب علماء اللغة والمؤرخين وهي كالآتي:

1- مرحلة الجمع العام:

نذر العلماء أنفسهم لجمع اللغة من أهل البوادي وعرب الصحراء، ممَّن لم تختلط عربيَّتُهم بالدّخيل والأعجمي، فمنهم أمثال "" أبي عمرو بن العلاء" أمضى أربعين سنة في جمع اللغة وروايتها، فكان يتحرَّى الصدق والدقة من أفواه العرب الأقحاح، فلم يكن لهذه المرحلة في العمل المعجمي الترتيب والتصنيف الممنهج، وكان يتَّسم بالعفوية والاعتباطية في حصْر المفردات وشرحها، وذهب المؤرِّخون العرب إلى أنهم اعتمدوا في جمع اللغة على قبائل ستّ مشهورة وهي : قيس، تميم، أسد، هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين [2]، بينما لم يُؤخذ عن حضري قطّ، مخافة فساد لغتهم واختلاطها، ولا أيضا عن سكان البراري ممن كانوا يعيشون على أطراف شبه الجزيرة العربية، ولم يتوقف ذهاب الرواة إلى الأعراب فقد كان بعض الأعراب الفصحاء الذين يقطنون في الحواظر فأخذوا منهم فصيح العربية، وممَّا أُلِّف في هذه الفترة_ القرن الثاني إلى القرن الثالث هجري_، نجد كتب الغريب من القرآن و الحديث [3]، وألفاظ اللغة عموما وكتب النوادر والأمثال والأشعار.

2ـ مرحلة الرسائل والكتب المتخصصة:

عُني المؤلفون في القديم مع ظهور إضاءات في التصنيف المعجمي بجمع كلمات اللغة التي تخصُّ موضوعاتها في كتب مستقلَّة كالخيل والطير والمطر، فبعد أن اكتسبوا اللغة الخام بدأوا

بتصنيفها وفقا لمواضيع محدَّدة مثل كتاب الأضداد وهذا من ناحية دلالات الألفاظ ،وكتب في مثلثات الكلام والتي تنسب إلى " قطرب".[4]

وقد أفضت الحديث في هذه القضية.

3 ـ مرحلة المعاجم العامة المتكاملة:

بعد هاذين المرحلتين وصل العمل المعجمي إلى أوجّ تطوُّره مع ظهور أُولى المعاجم اللغوية الرائدة وهي مع إبداع "الخليل" في نظامه الصوتي-التقليبي- ومعه بدأ التأليف يتَّجه إلى عمل ممنهج متقن ذو خطوات رئيسية بَنَى عليها المؤلفون معاجمهم، فهذه المرحلة تُعتبر نتاج المرحلتين السابقتين وطفرة معجم العين، ففي القرن الرابع الهجري، أشهر عصور الصناعة المعجمية، وعندها استمرَّ وتطوَّر فأصبح علمًا قائمًا بذاته [5]، وللعلم فإن معجم العين يعتبر تاريخيا أُولى المعاجم ظهورًا فقد كان في المرحلة الأولى من مراحل الصناعة المعجمية، لكن حين تصنيفه عمليا فهو يندرج ضمن المرحلة الثالثة فتصبَّغ هذا العمل بصبغة الشمولية والسعة والتقصّي والتنظيم. ومنه انتقلت المعاجم من الخصوص إلى العموم، في مثال: "جمهرة اللغة" "لابن دريد"، و"ديوان الأدب" "للفارابي" و"البارع" " للقالي"، وغيرها من المعاجم اللغوية التي شمِلت ألفاظ اللغة بعيدًا عن مجالها الدلالي والموضوعي، بطرق معينة كلّ حسَبَ إبداعه.

ومنه فإن هذه المراحل الثلاث تعتبر نموًا طبيعيًّا تشير كل مرحلة إلى ما بعدها بشكل بديهي، ولم يكن هناك تباعد زمني محدَّد، فقد تداخلت المرحلة الأولى مثلا مع الثانية والثانية مع الثالثة ،وذلك في وجود معاجم تُصنَّف عمليًا في المرحلة الأولى وهي قد أُنتِجت في المرحلة الثالثة مثلًا في المعاجم العامَّة مثل"غريب الحديث" "للأنباري" (271-228هـ) و"غريب القرآن" "لنفطويه" (244-323هـ)، و"نعت الفواكه والثمار" "لابن الأثير" (585-622هـ).[6]

وممَّا لا شك فيه أنَّ تراثنا المعجمي يمثِّل ثروة هامة ،فقد تطوَّر من القرن الأول والثاني للهجرة إلى غاية القرن الثاني عشر للهجرة واتَّسع التأليف في المعاجم وتنوَّع في مجالات عدة، كتبٌ في الاشتقاق وكتبٌ في علم اللغة وكتبٌ في المعرب والدخيل وكتبٌ في المترادف وغيرها من القضايا الدلالية التي لا طالما وجَّهَت اللغة العربية إلى أسمى نموّها مقارنةً بلغات الأمم الأخرى كما قيل:<<اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية وأرقاها مبنى واشتقاقا وتركيبا>>

الصناعة المعجمية في التراث العربي قديما تمثِّل القاعدة والأساس الذي مضى عليه علماء المعاجم إلى صناعة ممنهجة ومتقنة، فهو تنظيم لهيكلة البُنى العربية وأقيستها وطرائق توليدها واقتباسها [7]، وحقولها الدلالية، إذ اعتبر المستشرقون نجاحًا باهرًا في مجال التأليف المعجمي قد وصل إليه العرب وشهِدوا لهم بالسبق والتميز، وفي هذا يقول هايوود "Haywood" في كتابه: "Arabic Lexicography": << الحقيقة أنَّ العرب في مجال المعاجم يحتلُّون المركز سواء في الزمان أم المكان بالنسبة للعالم القديم أو الحديث وبالنسبة للشرق أو الغرب >>[8]، وهذا اعتراف جدير بالاهتمام، يُنهي إلى أنَّ الفضل في السّبْق كان للعرب دون الغرب إذ إنّه أُولى المعاجم ظهورا عند العرب كان بالطبع عند "الخليل" في القرن الثامن الميلادي بينما عند الغرب أولى المعاجم كان منذ القرن السابع عشر عند " روبرت ثاودري" وهو معجم باللغة الانجليزية سنة 1704 م.[9]

ومع مرور الزمن كانت الدراسات اللغوية في تطوُّر دائم مع التطورات الحديثة التي مسَّت حياة الإنسان من كلّ الجوانب ،فلم تبق الصناعة المعجمية بنفس وتيرة التحليل والتدقيق في أساليبها وطرقها، وتقنياتها، فقد اتخذت سبيلا آخر خاصَّة في ظلّ الألسنية الحديثة ففي نظر

صاحب كتاب " مصطلح المعجمية العربية" " أنطوان عبدو" في قوله :<<لقد شاب التحقيق المعجمي وتنظيم البنى الفعلية والاسمية وطرق تصنيفها، واستخراج سنن عملها وموازينها، الكثير من التعليلات المغلوطة والتصنيف التراكمي والاختراع والإهمال>>[10]، معنى ذلك أن التصنيف المعجمي قد وصل إلى مرحلة التراكمية والرُّكود، فاعتمدوا على مواقف معيارية وتعليلية لا وصفية، ووقعوا في التوزع والركامية، معنى هذا أنهم تغاضوا عن اختلاف مفاهيم الكلمات واعتبروها متماثلة، إلى حدٍّ كبير، في حين يوجد اختلافات في المعاني و في المترادفات ، من دون تمحيص ونقل بعضهم عن بعض دون تمييز ولا نقد، وجعلوا الاشتقاق أنواعا وأصنافا تظهر وكأنها متساوية في الأهمية، وإلى غير ذلك من الدراسات اللغوية وبالأخص المعجمية التي كانت سائدة في الماضي، ومنه فإن المعجميين المحدَثين قد أدركوا بعد طول الوقت من ظهور المعاجم القديمة إلى أن الظروف المتحوّلة والزمن المعاصر يفرض عليهم خلق نماذج معجمية جديدة تتماشى والحياة الجديدة لدى الأفراد، فسعوا إلى إيجاد قيم ووسائل متطورة في التحليل والتصنيف المعجمي يقوم على: <<الوصفية والموضوعية والشمولية والتجريد>>[11].

وحين النظر إلى تلك المبادئ- الوصفية و الموضوعية، الشمولية و التجريد- فإننا نتحول بذلك من العمل على النظام القديم الجمعي العام إلى نظام لساني جديد، يتحرَّى المعايير والمناهج الألسنية الحديثة، وإمكانات الآلة في التنظيم والإحصاء والكشف عن الحقيقة الدقيقة لأنَّ ما سبق من المناهج عجزت عن توفير قدر أكبر من المصداقية والشمولية، لذا يرى اللغويون المحدثون أن المعجم بمفهومه الحديث أنه نظام يتكون من عناصر، وهي الكلمات المفردة ذات المعاني المفردة أيضا، وكذلك أنَّ كلّ محتويات هذا المعجم تتماشى ووظيفة هذا الأخير، فالمعاني نوعان: أحدهما وظيفي والآخر معجمي لكلِّ كيانه الخاص كما وضحَّها "تمام حسان" في قوله:<< وفيما يلي بيان للعلاقات التي تترابط بها محتويات المعجم وهي المبرِّر لتغيير النظرة إلى طبيعة المعجم والمساعد على تحويل الكيان المعجمي في أفهامنا من كونه رصيدا من المفردات إلى كونه نظاما من أنظمة اللغة >>[12]:

1- ترابط المفردات بواسطة أصول الاشتقاق.
2- التمايز بواسطة الصيغة الصرفية للكلمات.
3- بيان معنى الكلمة بواسطة هذين المحورين ـ الصيغة الصرفية وأصل الاشتقاق ـ .
4- النظر إلى أصل وضع الكلمة لبيان الأصلي وغير الأصلي من المعاني.
5- أثر المسموع في بيان الأصلي من غيره.
6- الحقول المعجمية وأثرها في تكوين السياق.
7- المناسبة المعجمية بين ألفاظ من حقل وألفاظ من حقل آخر.
8- فكرة النقل وأثرها في مرونة النظام المعجمي.[13]

فـ"تمام حسان" هنا يشير إلى خصائص المعجم الحديث التي لا طالما غفل عنها المعجميون القدامى، ومحاولا إيجاد مسار تنظيمي حديث يتَّبعه فيما بعد صُنَّاع المعاجم في العصر الحديث.

وبالفعل ، قد جاء من يسعى إلى نظام معجمي محدَث، وموزون على الطريقة الحديثة فقد طرح " أحمد عمر مختار" فكرته حول مستقبل المعجم العربي وحاضره المتطور [14]، من خلال تقسيمه لمستقبل المعجم العربي إلى فترتين زمنيين:

1- فترة مستقبلية قريبة المدى وفيها وجَّه نظرته إلى المعاجم الغربية ليقارن بينها وبين ما جاء به

مؤلفونا العرب في هذه الفترة، فبدأ بالجهود المبذولة لدى الغرب، بحيث ذكر بعض الأعمال المعجمية والمتمثلة في :

أ_إنشاء جمعيات معجمية متعدِّدة

ب-ظهور مجلَّات معجمية متخصَّصة في الجانبين النظري والمنهجي.

ج_عقد المؤتمرات والندوات وورش البحث الخاصة المعاجم.

د_ظهور ببليوغرافيات متنوعة في المعاجم.[15]

وفي خِضَّم هذه التحولات التي طرأت على المعاجم الغربية، طرح " أحمد مختار عمر" ما طرأ على المعجم العربي، وقسَّم ذلك إلى محاولات فردية وأخرى مؤسسة.

أوّلا: الجهود الفردية:

والتي تمثَّلت في ظهور معاجم لُغوية منها :

- المعجم، تأليف: أديب اللخمي وآخرين.
- لغة العرب، تأليف: جورج متري عبد المسيح.
- الهادي إلى لغة العرب: تأليف: حسن سعيد الكرمي.

وقد وُصِفت هذه المحاولات في النظر إلى المنهج بـ:

1- وضع منهجية جديدة للمعجم العربي: والمتمثلة في عمل " أحمد فارس الشدياق" (1704م-1778م) الذي شغل نفسه بالعمل المعجمي ومعظم آرائه المنهجية نجدها في كتابه " الجاسوس على القاموس" وهي ملخّصة في :

- ترتيب المادة اللغوية التي اعتمد فيها على الترتيب الهجائي العادي مراعاة أوائل الألفاظ دون أواخرها.[16]
- الترتيب الداخلي للمواد المعجمية، فقد عاب على النظام القديم في الفوضى المتمثلة في اختلاط النسق والمداخل، فهو جعل في ذلك ترتيبا خاصا وذلك مثلا: تقديم الثلاثي على الرباعي والرباعي على الخماسي.
- صحة التعاريف، يشترط " الشدياق" في صحة التعاريف ثلاث أمور:
  - أ- وضوحها وعدم ابقائها في اللبس.
  - ب- تعدُّد طرقها ،عن طريق ذكر المرادف والمضاد.
  - ت- خلوها من الدور والتسلسل.
- الوقوف عند اختلاف المعجم، وهذا ما لم ينتبه إليه القدامى في نظر " الشدياق"، وهو أنه توضع ألفاظ اللغة غير القياسية ،ولذلك اعتبره من قبيل التجاوز لوظيفة المعجم، مثلا كلمات الطبّ والجغرافيا فهذا لا يذكر في كتب اللغة.
- وضع المُعرب تحت لفظه، أي يجب ذكر الألفاظ المعربة تحت باب سمي بهذا.[1]الاسم: فلا يجوز مثلا في كلمة " ارجوان" ذكر في باب الفعل " رجو" فهذا خلط في التصنيف في نظر " الشدياق".
- وأيضا يجب ذكر صفة اللفظ من حيث الاستعمال أهو مستعمل أم مهمل، ودرجة ذلك، فقد ذكر العيب الذي عِيب على القاموس في هذا الشأن فهو لم يذكر الألفاظ ما إن كانت مستعملة أم غير ذلك.[17]

وإضافة إلى ذلك سأذكر بعض المحاولات الفردية لتأليف المعاجم فيما بعد_ أي بعد القرن الثامن عشر ميلادي _منهم مثلا:

1- قطر المحيط: بطرس البستاني.

2- أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد: سعيد الخوري.

3- المنجد: السيوعي- الأب لويس معلوف.

4- متن اللغة: أحمد رضا.

5- الرائد: جبران مسعود.

6- المساعد: أنشاس ماري الكرملي.[18]

وهناك جهود عديدة لا يمكن حصرها في مثل هذا المقام.

وأيضا المؤسسات العربية حاولت النهوض بهذا العلم وإيجاد معاجم حديثة تتماشى والعصر

وتبتعد عن عيوب السابقين في الطريقة والمنهج ومنها مثلا:

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: المعجم العربي الأساسي.
- معجم اللغة العربية بالقاهرة قد صنف ثلاث معجمات هي:

-1- معجم وجيز.

-2- معجم وسيط: وفيه الألفاظ المستعملة الفصيحة ما يناسب الدّراسات الوسطى.

-3- معجم بسيط وفيه عامة اللغة، جامعا لغريبها وشواردها مبينا أطوار كلماتها وما طرأ على بعضها من توسع في الاستعمال، أو تغيير في المعنى عبر عصور اللغة المختلفة.[19]

- المعجم الوسيط: وفيه ثلاث طبعات الأولى كانت في 1961م

- المعجم الكبير: وفيه جزءان فقط، لم يتم إتمامه فقد وصل فيه مؤلفوه إلى مادة " أخر" من حرف الهمزة.[20]

- معجم ألفاظ القرآن الكريم.

وإلى جانب عمل وجهود المؤسسات والمجامع اللغوية، كان للمؤتمرات والندوات اللغوية الخاصة بصناعة المعاجم دور كبير في إعادة بعث الاهتمام بالعمل المعجمي ومن مثلها نذكر:

- ندوة دولية عام 1986م حول ثلاثة من المعجميين هم :"أحمد فارس الشدياق" و"بطرس البستاني" و "رنهارت دوزي".

- ندوة " أسس المعجم النظرية": سنة 1998م.[21]

كما قام المجلس الأعلى للثقافة بمصر بعقد ندوة عن اللغة العربية المعاصرة سنة (1997م) ضمنت عددًا من الأبحاث التي تناولت استخدام التكنولوجيا الحديثة في مجال المعاجم، والتحليل الآلي للغة العربية .

ونذكر أيضا جانبا من الجمعيات المعجمية اللغوية مثل [22]:

- جمعية المعجمية العربية ، تونس.
- الجمعية المصرية لتعريب العلوم، القاهرة.
- جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية، القاهرة.
- الجمعية المصرية لهندسة اللغة بجامعة عين شمس، القاهرة [23].

ومنه نحصل إلى أنَّ الصناعة المعجمية منذ دخولها الألسنية الحديثة تغيَّرت مناهجها وأطرها بحيث حازت على أكبر قدر ممكن من الشمولية والمصداقية، إلى وصولها مرحلة التطور والسير في ظل التكنولوجيا، فقد أُقحِم مجال صناعة المعاجم ضمن التعاملات التقنية الحديثة وعُقدت المؤتمرات والندوات في ذلك وأهم ما نوقش فيه:

- نظام اشتقاق الكلمة العربية بالحاسب.
- المعالجة الآلية للكلمات والنص في الأعمال المصطلحية.[24]

وعلى رأس هؤلاء المشتغِلين بحوسبة الدراسات اللغوية " نبيل علي"[25] الذي قدَّم عدة أعمال رائدة منها: اللغة العربية والحاسوب وبحثه، ميكنة المعجم العربي باستخدام المعالج الصرفي الآلي.

وذكر أيضا " أحمد مختار عمر" بعض البحوث التي تناولت الموضوع منها:

- العلاج الآلي للنصوص العربية: عبد الرحمن الحاج صالح.
- ثلاث إشكالات في حوسبة المعجم العربي: عبد القادر الفاسي فهري.
- التحليل الإحصائي لأصوات اللغة العربية- محمد علي الخولي.
- المعجم الالكتروني للغة العربية: محمد الحناش.

2/ نظرة مستقبلية بعيدة المدى[26]: وفيها اختار " أحمد مختار عمر" الحديث عن إنشاء هيئات قومية عربية تتولى صناعة المعجم العربي وضم الجهود المتناثرة وإعداد كوادر مدرَّبة، وتطوير

العمل الحاسوبي للمعجمية وإعداد قواعد بيانية خاصة بالتصنيف والترتيب اللغوي.

وعليه فإنّه من الممكن جدًّا النهوض بالمعجم العربي لاسيما والمحاولات متواصلة ومستمرة توحي نتائج جيدة لأبناء اللغة العربية، ونتمنى أن ترقى عملية النشر في اللسان العربي إلى مصاف المعاجم الحديثة باستعمال أحدث التكنولوجيات وإنشاء أعمال تفخر بها الأمة العربية. ومنه فإنّ الصناعة المعجمية من منظور لساني حديث؛ اختلفت مما كانت عليه سابقا عند أصحاب المعاجم العربية الأوائل، فالصناعة الحديثة اتسمت بالوصفية والموضوعية والتجريد، أما ما كانت عليه قديما فكان الجمع للمادة اللغوية جمعا تراكميا دون استقصاء دقيقٍ كافٍ.

الهوامش:

[1]- نقلا عن : عبد الكريم مرداوي، مناهج التأليف المعجمي عند العرب، ص 23.

[2]- ينظر: سناني، سناني، في المعجمية والمصطلحية، ص 48.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص 48.

[4]-ينظر: أحمد بن عبد الله الباتلي، المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها،ص 15

[5]- ينظر: سناني سناني، في المعجمية والمصطلحية، ص 50-49

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص 50.

[7]- ينظر: أنطوان عبدو، مصطلح المعجمية العربية ،دار الكتاب العالمي، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص4.

[8]- نقلا عن: هاييود: Arabic Lexicography،"سناني سناني، في المعجمية والمصطلحية، ص 43.

[9]- ينظر: المرجع نفسه، ص 43.

[10]- أنطوان عبدو، مصطلح المعجمية العربية، ص 6.

[11]- المرجع نفسه ، ص 7.

[12]- ينظر: تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب ، عالم الكتب ،القاهرة، مصر، ط1، 2006م، ص 89.

[13]- المرجع نفسه ، ص 89.

[14]- أحمد مختارعمر، صناعة المعجم الحديث، ص ص 166-165

[15]- ينظر: المرجع نفسه، ص 166.

[16]- أحمد مختارعمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، مصر ،ط6، 1988م، ص 305.

[17]- المرجع نفسه ، ص 308.

[18]- أحمد مختارعمر، صناعة المعجم الحديث، ص 168.

[19]- المرجع نفسه ، ص 166.

[20]- أحمد مختارعمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 323.

[21]- أحمد مختارعمر، صناعة المعجم الحديث، ص 166.

[22]- ينظر: ، المرجع نفسه، ص 166.

[23]- المرجع نفسه ، ص 167.

[24]. المرجع نفسه، ص 168.

[25]- ينظر: المرجع نفسه ،ص 168.

[26]- ينظر: المرجع نفسه ، ص 170.